دار الحكمة و انطلاق مشروع الترجمة

أ.د. عبدالله التطاوي
نائب رئيس
جامعة القاهرة

(1)

إلى أى مدى تنبَّه العرب إلى دور الترجمة باعتبارها مشروعاً حضارياً يفتح نوافذ عقولهم ووجدانهم على فكر الآخر وإبداعه؟ وما طبيعة التحوُّل الذى عرفته نهضتهم من جرَّاء النضوج العقلى والتسامح الأخلاقى واحترام التعددية وقبول الآخر فى ظل مفهوم حركة الترجمة وتداعياتها؟ وما مدى قدرتهم على صناعة مزاوجة هادئة ورصينة بين علوم الأوائل والعلوم المنقولة دون انغلاق أو توقُّف عن إنتاج العلم والمعرفة أو تعطيلٍ لمسار تدفُّق عطاء العقول تجاه المنقول إلى جوار المؤلف أو المبتكر؟ وكيف استطاع العقل العربى أن يستوعب المترجم ليضيف إليه ويشارك فى إثرائه ثم يطرحه زادًا علميا جديدا ينقل إلى الأمم المختلفة؟

لعل الإجابة على مثل هذه التساؤلات تظل مدخلا أمينا وموضوعيا إلى حكاية فصل مهم من فصول " قصة الثقافة العربية الإسلامية " التى تعكس من مُسمَّاها ووصفها معاً منطق الانفتاح على كل المشاركين فى انجازاتها من كل الجنسيات الأجناس تحت وصف (الإسلامية) كما ضمت تحت مظلتها الواسعة كل الأديان تحت وصف (العربية).

فلم يكن من قبيل المصادفة – ولا الارتجال – أن يُقسِّم هارون الرشيد (دار الحكمة) فى دار السلام (بغداد) إلى: قسم العلوم الأوائل جمعًا وتصنيفًا وتدوينًا وتحليلاً للمادة العلمية العربية، وقسم خاص لقلم الترجمة نقلاً وإضافة ومشاركة إلا أن ينطلق الأمر من وعى (الرشيد) بأهمية انطلاق مشروع الترجمة – إلى حد الضرورة – ضمن فعاليات مشروعه الحضارى المتميِّز الذى بناه على أساس من تميز عصره وأصالة شخصيته فى سياق عُمق خطابه السياسي مع (نقفور)، أوخطابه العلمى إلى (شارلمان) من خلال قصة أولهما مع الجزية، وثانيهما مع الساعة المائية.

ولعل ما ظهر من محاولات مبكرة منذ عصر بنى أمية من لدُن عهد مروان بن الحكم لم يتجاوز دوره إرهاصاتٍ متواضعة لخلق اتجاه مبدئى ومقدمات ومشهد متحضر يمهد لبدايات الترجمة بما لا يتجاوز كثيرًا ما انتهت إليه ترجمة (يوحنا الكبير) لكتابَين عن السريانية كما ترجمت كتب (الصنعة)، وبعض كتب فى (الطب) و(النجوم) على عهد خالد بن يزيد بن معاوية، ولكنها كانت الندرة مع البساطة التى تغلب على البدايات الطبيعية للأشياء أوالخطوة المبدئية للمشروع

تمهيدًا لما شهدته الأعصر العباسية من نشاط واسع فى نقل العلوم الأجنبية وشرحها وتلخيصها حتى استطاع العلماء العرب المسلمون بناء جسور الحوار الحقيقى بين العلوم والثقافات، حتى امتدت إلى التفاصيل والجزئيات بقدر امتدادها إلى ما وراء الترجمة ذاتها من المشاركة بالقبول أو الرفض أو التعديل أو الإضافة والابتكار، أو التحفُّظ مع اكتشاف الجديد على غرار ما عُرف – مثلا– عن جهود ابن المقفع من نقله لكتاب " كليلة ودمنة" و " الأدب الصغير" و " الأدب الكبير" وهو ما تكرَّرت نظائره لدى " حنين" و" اسحاق" بما ترجماه من الكتب عن طريق السريانية إلى العربية مما سجّله لنا فهرست (ابن النديم) وبيان الجاحظ وتبيينه، ثم دراسات الاستشراق، وقبلها ما سجلته مصادرنا القديمة ومراجعنا العربية المعاصرة المعنية بتاريخ العلوم .

وإذا كنا نتوقع دائما من المترجم التمتع بمهارات معينة وامتلاك قدرات وتقنيات كافية، وأدوات نطمئن بها إلى مستوى ترجمته فقد تحقَّق من ذلك الكثير لدى هواة الترجمة الذين أجادوا اللغَّتين على نفس المستوى من التمكُّن والإبانة، وامتلاك ناصية القول على نحو ما رُوى عن أبى موسى الأُسوارى من قدرته على تفسير الآية القرآنية للعرب عن يمينه بالعربية، ثم تفسير نفس الآية للفرس عن يساره بالفارسية فلا يُدرى بأى اللسانَين هو أبينَ؟!

وما حدث فى العلوم الدينية وردت له نظائر فى العلوم التجريبية التى برع فيها أمثال (ثابت بن قرة) و (سنان بن ثابت) حول كتاب (الأصول) لإقليدس .. وكذا فعل أعلام الطب وغيره من العلوم – كما سنرى – وعلى غرار ذلك كانت الترجمة فى علوم الصيدلة والعقاقير والمدارس الكيميائية والفيزيائية، كما تراءى من دور عالم مثل جابر بن حيان فى كتاب (نهاية الإتقان) أو (رسالة الأحزان) وقد تُرجما إلى اللاتينية بما احتوياه من مناهج البحث العلمى وطرائقه الدقيقة من الاستقراء والاستقصاء، أواتساق النتائج مع المقدمات، مع الاطمئنان إلى صحة المشاهدة وأسس التجربة وخطوات المنهج .

يمتد القياس فى رياضيات (الخوارزمى) وابتكاره فى الجبر والفلك وحساب المثلثات والمقابلة وغيره من كتب الهندسة، وكذا كان غيره فى علوم الفلك من " نوبخت" الفارسى و"ثابت ابن قرة " و "المهانى " و " الكندى" و " البوزجانى " و " ابن يونس" و " البيرونى" و " الخازنى" و"الطوسى" و "البتانى" وغيرهم .

ثم امتدت المشاركة عبر علوم الجغرافيا والرحلات، وكتب المسالك والممالك لابن خرداذبة الفارسى الأصل، واليعقوبى فى البلدان، والهمدانى فى صفة جزيزة العرب، إلى ياقوت فى معجم البلدان على مؤلفات البيرونى والمسعودى والمقريزى وغيرهم كثيرون ممن يُعنى بأمرهم كثيرون أهل

العلوم وتاريخ العلوم وفلسفة العلوم بما ينبغى أن يتحقَّق – علميا– فى وجوب دراسة تاريخ العلم – أى علم – على مدار حركة التاريخ وتوالى حقبة وعصوره وهو ما يجب أن تنهض به الكليات والأقسام العلمية المتخصصة فى جامعاتنا العربية بدءا من توفير مادة قرائية تراثية كافية للتأصيل التاريخ وتطوره ومناهجه ورواده وصولاً إلى ما أصابه من روافد التطور والتحديث فى كل حقبة تاريخية على حدة.

(2)

وتتواصل أهمية رحلة الترجمة في أطياف العلم العربي وساحاته المتعددة ارتباطا فى ذلك بقوة اللغة التي – غالبًا– ما تُستمد من قوة أهلها، ومن ثم تستمر سيادتها من واقع قدرتهم الفعلية على إنتاج العلم والمعرفة بها؛ الأمر الذي ربما يُوقفنا على عدة ظواهر تبدو متوازية في فترة المد والازدهار في العلوم العربية موزَّعة بين حركة الترجمة والتأليف، لعلَّ من بينها ما كان من حرص العرب على تقعيد اللغة والبلاغة للأعاجم، سواء ما تم تأليفه عن العلماء العرب من أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدى في معجم (العين)، أو ماشاع تأليفه في النحو العربي على غرار كتاب (الكتاب) لسيبويه، أو ما شاع من مؤلفات النحاة واللغويين في مدارس البصرة والكوفة وبغداد، أو ماورد فى صورة موسوعية عبر كتابات الجاحظ ورسائله، وابن قتيبة وأبى حيان التوحيدى وغيرهم.

في إطار مثل هذا النشاط المزدهر وأثناء مرحلة التقعيد ومع قدوم عصر الرواية والاستشهاد وإثر مرحلة الجمع والتدوين والتصنيف، ومع بداية الانطلاق منها إلي عصر الشروح والتحليل اجتهد العقل العربي – بحق – في تعميق حركة تعريب العلوم، بدءًا الحرص على نقلها إلي لغتنا، وهو ماظهر في موازاته نقل العلوم العربية إلي الآخر في حركة تبادل فكري وعلمي متميزة تقوم على تبادلية الأخذ والعطاء المعرفي، بقدر ما تنهض عليه من تأسيس وتأصيل متجِّدد ومفتوح لمدارس العلم والفكر، خاصة في مرحلة تأصيل المنهج العلمى ووضع قواعده سواء في العلوم الإنسانية أو التجريبية بما فيه من مشترك حول صحة المقدمات والنتائج، أو سلامة المرجعية والتوثيق، أو الاستقراء والاستقصاء المنهجي، أو الوقوف عند أخلاقيات البحث العلمي في مختلف أبعادها على نحو ما ذكرناه آنفا.

ومن الطريف والمهم في معرفة العرب للمناهج أنهم أقاموها – أيضا– على نفس التبادلية التي أفادوا فيها من المنهج (الأرسطي) بقدر ما أفادوه من ترجمة كتاب فن (الشعر) أو (الخطابة)، وبقدر ما كان من انفتاحهم – أيضا – على بقية صور الإنجاز العلمي في فروع المعرفة الفلسفية والمنطقية والعلمية دون تقوقع أو تراجع أو انكماش إزاء كل ما هو جديد عليهم، فقد تمتع العقل العربي بالجسارة الكافية مع الإصرار على استطلاع الجديد ليضيف إليه الكثير من عطاءاته المتجددة، تلك التي

انطلقت من عمق الأرض العربية نَبْتًا مشتركا بين الثقافتين العربية والإسلامية على غرار ماحدث من مشاركات ملموحة أسهم بها أهل العراق وفارس والهند والشام في حركة الترجمة وغيرها على نحو ما توقَّف عنده مؤلف مثل الثعالبى في (يتيمة الدهر) حول طبائع تلك البيئات وبيان دورها في حصانة اللغة أوانفتاحها في سياق المشترك اللغوي، وعلى غرار ما توقَّف عنده (بروكلمان) في تاريخ الأدب العربي، أو (ول ديورانت) في قصة الحضارة، أو (فؤاد سزگين) في موسوعة تاريخ التراث العربي.

كما يظل من الطريف والمهم – أيضًا – ذلك الاندفاع لبعض الأسر العربية إلي التخصص فى الثقافة العلمية – بخاصة– حيث لم يكن اندفاعهم أقل تدفقا من اندفاع أهل السياسة إلي توارث المناصب العليا على النحو الذي شهده بلاط الخلافة الحاكمة في أسرة بنى العباس، أو ما طفا على السطح من صراع بنى برمك فى مواجهة الخلافة الحاكمة قبل وقوع نكبة البرامكة على يد الرشيد، أو ما شاع من حرص على وراثة المناصب العليا على مستوى الوزراء والكتاب على نحو ما عُرف عن أسر بعينها مثل (آل نوبخت) (وبنى سهل) و(آل خاقان) و(آال وهب) و (بنى الربيع) وغيرها من الأسر الفارسية العريقة التي وجدت في الوزارة والكتابة سندًا قويا يسمح بأن تتوازى مع الطبقات العليا حاكمةً كانت أو قريبة من الحاكمة.

انتقلت العدوى – إذن – إلي ساحة العلم وعالم المعرفة، وبرزت في مجال الطب وعلومه بخاصة من خلال أسرة (آل بختيشوع) منذ أولهم (جورجيس) ثم ابنه (بختيشوع)، و(آل حنين) بالحيرة وكان أولهم (حنين ابن اسحاق) و(آل ما سرجويه)، وأولهم ما سرجويه طبيب البصرة إلي (آل ثابت) وأولهم ثابت بن قرة من مدينة (حرَّان) ... وغيرهم.

فمن خلال مثل تلك الأسر وأفرادها المبرَّزين في الطب، ومن خلال غيرهم – أيضا– في مجال ترجمة العلوم إلي العربية وجدت ذخيرة جيدة استوعبها العقل العربي منذ بدأ رحلة الإضافة والمشاركة والابتكار والتأليف على النحو الذي استهلَّه (سنان بن ثابت) حين ألَّف بعض الرسائل لطلاب الطب ودارسيه تأليفًا لا ترجمة، كما أسهم في إنشاء بعض المستشفيات للتعليم، لتتوالي بعدها حركة التأليف العربي في فروع الطب على نحو ما صدر من كتاب (فردوس الحكمة) (لأبي الحسن بن سهل الطبري)، ومثله كتب (الحاوى) و (المنصوري) و (منافع الأغدية) و (محنة الطبيب) وغيرها أكثر من مائتي كتاب ألفها (أبو بكر الرازي)، إلي جانب مؤلفاته في الكيمياء والرياضة والهندسة تأكيدا لموسوعية التأليف في سياق العلم العربي الإسلامي إلى جانب عمق التخصص المنهجى.

والحديث هنا عن مؤلفات موسوعى فى تامة ابن سينا لايتجاوز إشارة عابرة إلي دوره طبيبا وأديبا وفيلسوفا ومؤرخا وفلكيا ورياضيا حتى اكتسب موقعه ولقبه فكان الشيخ الرئيس، كما كان بمنزلة

المعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي في الفلسفة منذ أحدث تلك التبادلية الرائعة فيما ألَّفه في الطب من كتاب (القانون) وفي القانون من كتاب (الشفاء)، يقال عن ابن النفيس في الدورة الدموية، والزهراوي في الجراحة والأدوية مما يحسن الرجوع إليه تفصيلا في الدراسات المعنية بتاريخ العلوم.

والشاهد المؤكد هنا ما توالى من نجاحات العرب في التأليف بعد نجاحهم في حركة الترجمة التي استوعبوا منها الدرس الذي وعوه جيدا حتى صاروا صُنَّاعا للعلم الذي أخلصوا لهم عقولهم، بالإضافة إلي اختراقهم دوائر الإبداع التي نبغ فيها أسلافهم، حتى أصبح العلم العربي قادرًا على أن يتكلم العربية التي انتشر بها عبر حركة ترجمة ثانية تمَّ فيها نقل الطب العربي إلي اللاتينية ليعرف طريقه إلي جامعات أوربا ومدارسها لعدة قرون تُرجمت خلالها مؤلفات الرازي، وابن سينا، وابن النفيس، والزهراوي، كما ترجمت كتب ابن البيطار والهراوي وما سويه المارديني، وعمار الموصلى في الأدوية وغيرها كثير.

وبذا سادت تلك الجدلية العربية الأوربية منذ بدت موزَّعة بين إنتاج العلم وبين ترجمته، وتراوح الأمر على مدار حقب التاريخ ودوراته من واقع عنصر القوة على مستوى السياسة والثقافة، واللغة، إلي أن أصيبت الحياة العربية بالشلل أمام اندفاع هجمات التتار من الشرق فكان عداؤهم – أى التتار– للفكر الإنساني – بعامة – دافعا كافيًا لإحراقه أوإغراقه في نهر الفرات، أو تدمير مكتباته ومدارسه، لتأتي حركة الحروب الصليبية على البقية الباقية منه فيتوقف الإنتاج العربي، وتنقل كنور العلم والفكر والثقافة إلي مكتبات أوربا.. ولا غرابة – بهذه المعيارية– أن نبحث عن أصول المخطوط العربي في مكتبات ليدن أو اسطنبول أو الاسكوريال أو حتى في مكتبة الكونجرس إذا ما أردنا جمع هذا التراث المسروق الذي أخذ الغرب خلاصة نظرياته ونتائجه ليؤسِّس على منوالها مقومات النهضة الأوربية التي أعدنا التواصل معها من خلال البعثات وتنشيط حركة الترجمة منذ عصر بداية ا لدولة الحديثة وسفر رفاعة الطهطاوي ورفاقه إلي أوربا.

بمثل تلك التبادلية القائمة بين التعريب والتغريب يجب إعادة النظر في مستوي تدفُّق مشروعنا القومي لا من أجل نقل علوم الآخر وفكره فحسب –على الرغم من أهمية ذلك في عصر الثورات العلمية المتراكمة والتقدم المعرفي المذهل– ولكن يضاف إليه الجناح الآخر في أهمية نقل خلاصة فكرنا ومصادرنا إلي الآخر في سبيل تصحيح سبُل التعريف بعطاءات الفكر العربي الإسلامي منذ علَّم الدنيا كلها عبر ازدهار حركة الترجمة منذ عصورها المبكرة. فمن المؤكد أن إحياء ذلك التراث وتجديده يتطلب ترجمته في إطار تلك التبادلية التي درجت عليها الأمة فحقَّقت انفتاحها على نوافذ الدنيا من حولها أخذًا وعطاءً، تأثرا وتأثيرا، دون انقطاع إلا في فترات الجمود والتوقف المد الاستعماري الشرس

بكل تداعياته السلبية.

ولذا يبقى الطموح واردًا وماثلاً في حركة تعريب العلوم بصرف النظر عن طبيعة اتفاقنا أو اختلافنا حول نتائج بعض تجاربها في سوريا الشقيقة – مثلا– وهو ما يجب تكراره على المستوي القومي، ثم متابعة تحليل مراحله، مع تصحيح تجارب التعريب وبرامجه بما لا يعني تهميش اللغة الأجنبية بقدر ما يعنيه من وجوب الاحتفاء بلغتين العربية والاعتداد بقدرتها وقوتها على أن تظل وعاءً للعلم وبوتقة المعرفة كما كانت في فترة مدَّها وازدهارها المبكر.. أما حالة انكماش العربية أوتخاذلها أو تردِّى أهلها أمام ثورات العلم والتكنولوجيا فما نتوقعه لها قد يظل مجرد نتائج غامضة غير مأمونة العطاء بما يعنى نجاح الخصوم فى تغييب الهوية، أو تهميش الشخصية العربية، أو مسخ الكيانات القومية، أو الاستخفاف بتاريخ الشعوب إذا ما استسلمت لسيادة لغة أجنبية على حساب لغتها الأصلية، وليست لغة الصين واليابان وكوريا وفرنسا وألمانيا منا ببعيد من حيث حرص أبنائها على لغتهم القومية في الإنتاج والمعرفة والإصرار على التحدث بها فى المحافل الدولية دون انقطاع عنها، أو قبول لأي من صور المساس بها كما قد يفعل كبار مثقفينا من قبيل المباهاة – بلا معنى – وكأنما تجاهلوا موقع لغتهم في ظل تحديات الواقع والمستقبل .. نتوقع تعميم تجارب تعريب العلوم برعاية أساتذة كبار يعرفون مرجعياتهم الصحيحة ويقدرونها – حق قدرها– من دراسة تاريخ العلم وتطوره ومصطلحه ونظرياته بقدر مايعرفونه من معاجم اللغة المتخصصة،ومن مجامع اللغة العربية ودراسات المتخصصين في العلوم والمعجمات بما يثرى العربية حتى تستعيد ماضيها العريق من كانت لغة العلم والمعرفة، حتى ينفض عنها أبناؤها غبار اتهامات الآخر بقصورها أو عجزها عن إمكانية المزاحمة في عصر المواجهة .. حيث لايصح – في النهاية – غير الصحيح من عطاء لغة عاشت أكثر من سبعة عشر قرنا من عمر الزمان إذا ما أخذنا بتقدير الجاحظ للجاهلية بمائتى عام ظنًّا، لتظل لغة الإبداع والفكر باقية دون شبهة الإفلاس في معاجمها الثرية إلا فى فترات انتكاسة أهلها تحت ضغوط الطامعين والمستعمرين الذين ملأوا الأرض طغيانا وظلمًا على حساب مقدرات الشعوب وتاريخها وإبداع علمائها من الرُواد والشوامخ الذين دانت لهم حضارة الغرب بكل أسرارها التي فتحت بها مغاليق أبواب المعرفة من خلال إنجازات حركة الترجمة عن العربية. فهل آن للمشروع القومي أن يحقق ذلك الأمل المرجو في استعادة توازن تاريخ نهضة الأمة علمًا وفكرا وإبداعًا معًا ؟ !

(3)

ولعل ترجمة ما يصدر عن الفكر والعقل يبدو أيسر فى النقل مما يصدر عن الوجدان والشعور، انطلاقا من تجارب المبدعين الذين لم يتردَّدوا فى إعادة قراءة كتاب (الشعر) لأرسطو

– مثلا– إلى أن ترجموه، وكذا كان شأن كتاب (الخطابة) مع تعدد المحاولات بين الترجمة الحرفية والترجمة بالمعنى، حتى تواصل الاجتهاد فتجاوز خلط الأوراق فى تحديد مفاهيم الأنواع الأدبية وحدودها، وكشف ما بينها من تداخل أو تقارب فى المفاهيم على غرار ما صنعه العرب حول (التراجيدى) و (الكوميدى) من إبداع اليونان فى إطار فن المسرح الشعرى الذى عرفوه وشاهدوه فى الهواء الطلق بما لا يتوازى – بالطبع– مع شعر العرب فى غنائيته وذاتيته حتى انتهى الأمر لديهم إلي ترجمة (الدراما) فى أول صدمة حضارية لهم مع الطرح الأرسطى بفن (المديح) والبطولة القتالية للممدوح الذى تتجسَّد حين شخصه آمال الأمة إشفاقا عليه وخوفا من انهزامه، فى مقابل (الكوميدى) بما تحمله من معانى النقد الاجتماعى، أو صيغ السخرية والتهكُّم بما يبعث على الضحك وإثارة البسمة على الشفاه بغية إصلاح ما أعوجَّ من الأشياء أو الظواهر.. ومع اقترابهم من التصوُّر (الأفلاطونى) والطرح (الأرسطى) ظهر فلاسفتهم على طريقة المعلم الثانى (الفارابى)، وكان من فكر الكندى، وابن سينا، وابن رشد وغيرهم من كبار الفلاسفة الأعلام.

ولم تقف الترجمة العربية موقف المستقبل من الفارسية أو الهندية أو اليونانية أو السريانية بقدر ما أضافت إليها من موقف المُرسل الجيد لاسيما عند مزدوجى الثقافة ومتقنيها على طريقة (البيهقى) فى المحاسن والمساوئ، وكتاب (المحاسن والأضداد) للجاحظ، وتأثر القاضى بن حميد البلخى بأسلوب القص من لدن أصحاب المقامة، وهو ما شهد امتداده عبر تواصل رحلة أصداء رسالة الغفران لأبى العلاء فى توابع ابن شهيد وزوابعه، ثم فى كوميديا دانتى، وفردوس ملتون.

كذا كان شأن العقل العربى والوجدان العربى معًا فى درجة قبولها لعطاءات الآخر ليصنع العربي مشروعه الحضارى المتسامح من جانب، ولينطلق بعطاءاته المتميزة ليكشف غياهب الظلام من تيه العصور الوسطى الأوربية من جانب ثان، الأمر الذى يكشف عدة حقائق يجب الإفادة منها والوقوف عند دقائقها وتداعياتها فى سياق المشروع العصرى للترجمة لعلَّ من بينها:

وجوب التركيز على تكثيف صيغ الانفتاح على الثقافات بما يزيد من الأرصدة العقلية الواردة منها، وبما يسهل مفاتيح أسرار العلم والمعرفة من خلال اجتهادات الآخر كما كان حال السلف من صُناع العلم ومبتكرى المعرفة ومتصدرى الإبداع وُمصدريِّه حتى تكلم العلم العربية على مدار ثمانية قرون من عمر الزمان!!

وكأنا كانت تلك البدايات العربية الأصيلة فى صناعة برامج الحوار الثقافى والجدل الفكرى وتأصيل مفهوم حوار الحضارات بعيدًا عن أزمة التصادمية أو الانكماش أو التعصُّب أو الانغلاق أو الصراع، ففى ظل نشاط حركة الترجمة والاعتداد بها ما يعفى العربى من شبهة أى من تلك

الاتهامات التى ربما عانت منها شعوب أوربا فى العصور الوسطى حين اكتفت بدور المستقبل أو المستورد والمتلقى والمستهلك، فكانت لنا – آنذاك – عولمة الفكر الوسيط، ولكنها بدت عولمة (إنسانية) (أخلاقية) لم تعرف أساليب القهر المعرفى، ولم تقصد تهميش الكيانات، أو المساس بتاريخ الشعوب، ولم ترمِ إلى تحقير الكيانات، أو الاستخفاف بمقدرات الأمم فى البلدان المفتوحة بقدر ما نشرته فيها من مبادئ وقيم ومُثل عليا تظل علامات هادية على طريق الإبداع الإنسانى فى ظل ضمانات العدل والمساواة والأخوة، ورفض الظلم والعدوان والإثم والطغيان، أو حتى استساغة قهر الإنسان لأخيه الإنسان !!

بدت حركة الترجمة عند العلماء العرب الرواد والأدباء المسلمين الأوائل كاشفة عن رحابة فكرهم وسعة صدورهم، وعمق مناهجهم ودقة رؤاهم، بقدر ما عكسته من مرونتهم وأصالة معارفهم وحصاد عقولهم، حتى تحوَّلوا عن المنطقة التي حدَّدها لهم الجاحظ حين صنَّف الأمم والشعوب بمعيار التميُّز منذ رأي في العرب أمة فصاحة وإبانة فى الشعر والخطابة، في مقابل تميُّز الفرس في فنون الرئاسة والسياسة والدواوين والحرب، أو تميُّز اليونان في الفلسفة والمنطق، أو الهنود في الحكمة والرياضيات والفلك؛ فإذا بالعرب ينطلقون عبر اجتهاداتهم وحصيلتهم العقلية والوجدانية في مجمل تلك العلوم بحكم تمكُّنهم من الترجمة وحرصهم عليها حتى انكبوُّا عليها فوضعوا المرتكز الثاني بجوار مرتكز علوم الأوائل، ومنها – بالطبع – العلوم الدينية واللغوية والنقدية والإنسانية، حتى دانت لهم الدنيا بما ملكوُا من العلم، وما فُتح لهم من أبواب الاجتهاد التي بدا خلالها العقل العربي منتجًا ومبدعا ومشاركًا دون توقُّف أو انقطاع إلا في زحام فترات الهجمات الاستعمارية الشرسة التي أوقفت عطاءه ونموه فشغلته عن تواصل المسار – كما أكدنا من قبل– ليس انحيازًا – إذن – ولا افتعالا ولا تزيُّدا أن تتدفَّق الثقافة العربية والفكر العربي عبر المعابر والجسور الكبرى من صقلية إلي الأندلس، وعبر القوافل والتجارة عبر وسط آسيا وشرقا إلي حدود الصين، وعبر البحار والمحيطات وصولاً إلي غرب الأرض وحدود الأمريكتين قبل (كريستوفر كولومبس) على نحو ما نتهى إليه د. فؤاد سزكَين صاحب موسوعة تاريخ التراث العربى، وما طرحه الدكتور محمود المناوي في طرحه المنهجي لقضايا التعريب والتغريب.

وليس مباهاة ولا افتراء ولا اختلاقًا أن يتنبَّه العقل العربي إلي جوهر الدين وصحيحه منذ دعاه إلي تفعيل الملكة، والانطلاق بالعلم إلى بواطن الكون وأسراره، بقدر ما حض عليه من دوافع الإبداع والاجتهاد مما انعكس –إيجابا– في بوتقة ذلك التفاعل والتلاقي والتواصُل بقدر ما انعكس في ضمانات قبول التعدُّدية والاختلاف وذوبان المساحات الفاصلة بين (الوحدة) و(التنُّوع) على المستوى الإنساني الرَّحب العميق.

وقد يبقي الأمر الأخير مُعلقا بصعوبة الترجمة في المادة الإبداعية التي قد نستشعر بقاء بكارتها وخصوصيتها في لغة الأم، حتى إذا ماتُرجمت – ولاسيَّما الشعر – فقدت الكثير من عطاءاتها الأصلية، وبريقها الأخاذ، خاصة إذا ما تعلق الأمر بلغة في منزلة لغتنا العربية بما تتمتَّع به من الأضداد، أو كثرة المفردات، إلي ما يقارب الترادف أو التجانس، ومثل ذلك ما قد تفرضه لغة المجاز والتصوير والمعاني الثواني التي تحكمها نظرية السياق بما تعكسه وتكشفه من أسرار البلاغة وجماليات التعبير، أو حبكة التصوير مع دقة النمط القول على نحو ما صاغة ناقد في منزلة عبد القاهر الجرجاني حول نظرية النَّظم، أو تآخي معاني النحو، وما صنعه – أيضا– كبار المفكرين والأدباء تجاه قضية الإعجاز البياني وخصوصية بلاغة العرب بحكم ماجُبلوا عليه من سلامة الفطرة بعيدا عن التصُّنع أو التكلُّف الذي عانت منه بقية الشعوب التى تنافست حول البيان على نحو ما كان من تاريخ فارس القديمة..

ربما يظل الأمر مردودًا – بطبعه القديم – إلي تنبُّه الجاحظ لصعوبة ترجمة الشعر– بالذات– وهو ماظلَّ صحيحا حتى في ترجمات ثلاثينيات القرن الماضي حين تعدَّدت حول (الأرض اليباب) ت.س.البيوت،أو (القُبرَّة) الشللى، أو غيرها من الترجمات التي تعدّدت مذاقاتها بقدر ماتعدَّد من دلالاتها وأوجه الاختلاف بينها باعتبار الأدب حمَّال أوجُه، وكذلك شأن لغة المجاز والخيال والتصوير التى يبدو أداؤها فى لغة الأم حاملاً كل طاقاته وشحناته التصويرية والانفعالية بما يصيبه ومن اختزال عبر رحلة الترجمة إلى لغة أخرى.

وقصدا إلي التركيز يظلُّ من حقنا أن نتأمَّل صعوبة ترجمة بعض المشاهد والصور التي وردت في شكل موجز – مثلا– عبر بعض الآيات القرآنية على نحو ما اهتدى إليه عبد القاهر الحرجانى – مثلا – في وقفته المتأنية عند تصوير دلالة السياق التصويرى في قوله تعالى على سيدنا زكريا: (قال ربَّ إنىَّ وهنًا على وهَنَ العظمُ منى واشتعل الرأس شيبا) مع تحديد الفروق البلاغية – لا اللغوية– بينها وبين (اشتعل الشيب في الرأس) بصرف النظر عن قضية زيادة المبني والمعني التى يقف عندها اللغويون ... وهو قد ما نجد له نظيرًا في صعوبة ترجمة ريشة (جناح الذل) – مثلا – في التصوير القرآني البديع " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة" أو مايشبه ذلك من عناقيد الصور وتوالى التراكيب وعمق الدلالة على غرار التوالى والتتابع في حلقات التصوير لنور الله سبحانه " الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح. المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دُري يُوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نارَ نُور على نور يهدي الله لنوره من يشاء.......... الآية "

حيث تبدأ الصورة من الكلمة المفتاح (النور) إلي طرح (الجزئيات) المتراكبة بما يقف عند مستوى البنية والإطار في ظل تفكيكية البناء وصولاً إلي كُليته الأوُلى التي انطلق منها منذ البدايةً.. فأي جمال هذا في لغة المجاز والتصوير التي يصعب ترجمتُها بنفس الثراء والعمق إلا أن يمتلك المترجم القدرة على إجادة اللُّغتين مع امتلاك أخلاقيات الترجمة بما تحتاجه – بالفعل– من الصَّبر والأناة والتروِّي والدقة، وما تتقبله من عمل الفريق والإفادة من رؤى الآخرين بعيدًا عن النرجسية التي ربما تغلق الأبواب على الذات حتى لو أخطأت أو ضلَّت الطريق، ولعل هذا ما يدعو إلى التفكير فى منتجع للمترجمين، أو حضَّانة للترجمة، أو قاعة بحث تهيئ السُبل لحالة التفرغ الكامل إذا قصدنا إلى إنجاح الترجمات الأدبية بخاصة باعتبار ما بينها وبين الترجمة العلمية من اختلاف في الطبيعة النوعية.

هكذا بدأت صورة المشروع الحضاري لحركة الترجمة من لدُن عصر الرشيد، وهو ما ينبغي تجديده بشكل أقوى في زحام عطاءات التراكم المعرفي والثورات العلمية المتلاحقة بما يجب مواجهته من التحديات وضرورة ملاحقة الرَّكب ليظل حقل الإبداع – بدوره – مجالاً رحبا لضمان الثراء من خلال امتلاك آليات الترجمة، وإنجاح مستويات التعامل من خلالها بقدر المهارات وأسس التمكُّن من السير في اتجاه الكشف عن أسرار اللغات المنقول منها والمنقول إليها على السواء.